

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### آثار الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة على الواقع

الحمد لله المبدئ المعيد البديع، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد العاقب الماحي الشفيع، وعلى آله المقترنين بالكتاب عصمة للأمة المتمسكة بهم عن أن تضل فتضيع، وعلى أصحابه الآخذين عن حضرته والمبلغين عنه وأساس الإسناد رواية ودراية وتزكية في المقام الرفيع، وعلى تابعيهم والتابعين لهم إلى يوم الوقوف بين يدي البصير السميع.

وبعد، فإنّ منهج أهل السنة المتلقّى بالسند المتصل رواية ودراية وتزكية، اعتقادًا وفقهًا وتصوفًا، كان وما زال هو الميزان الذي استقام عليه أمر سواد الأمة وعليه بنيت قواعد التعامل مع المخالف والمتغيرات والنوازل والاستيعاب له ولها، وكان الأساس الذي استقر به أمرها؛ ولم تستبد بها الكوارث ولم تعصف بها الأحداث إلا وكان تغييب هذا المنهج أو تعطيل العمل ببعض أسسه من وراء هذا البلاء.

ولما كانت الأبحاث المقدمة في هذا المؤتمر قد اشتغلت ببيان معالم المنهج والاستدلال عليها فقد أغنى ذلك عن بسطه في هذا البحث. والمقصود من هذه الأسطر هو إلقاء الضوء على الآثار المترتبة على الانحراف عن المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة في واقعنا المعاصر.

وتتكوّن هذه الورقة من مدخلين وخمسة ملامح وخلاصة وخاتمة.

والله أسأل كمال التوفيق لما يعلمه من الحق وأن يردّ للأمة ما فقدته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

## موجز عن منهج أهل السنة والجماعة

عرف أهل السنة بأنهم الأشاعرة والماتريدية اعتقادًا، والآخذون بفقهِ المذاهب الأربعة أصولًا وفروعًا، والمعتنون بالتصوف تزكية وسلوكًا.

ففي معتقد الأشاعرة والماتريدية قامت أسس اتصال العقل بالنقل خدمة واسترشادًا، فاتسعت آفاق المسلمين لما توصل إليه من كان قبلهم من الأمم، ووجدوا في معارفهم العقلية ضالتهم من الحكمة، فاستخلصوا تبرها من ترابها بمصفاة الوحيين ونور البصيرة والقدرات العقلية الفذة على التفرقة بين نتاج العقول وسفسطات الأهواء، كما أبرز منهجهم القدرة الفائقة على التعامل مع المستجدات الفكرية والفلسفية المخالفة للعقيدة الصافية فقاموا بدفع هذه الانحرافات بالحجة والمناظرة والتنفيذ.

وفي أصول الفقه وقواعده برزت العقلية القادرة على تأسيس منهجية التعامل مع الوحيين وعلومهما والتعامل مع الثوابت والمتغيرات على نحو رصين متسع لظروف الزمان والمكان ولنوازلهما دون جمود ولا تمييع، متوصلين بذلك إلى المنهجية التي تجمع بين الحراسة والسعة، مما فسح المجال واسعًا أمام الاجتهادات المستوعبة للمقاصد والوسائل والمتغيرات لظروف الزمان والمكان والمستشرفة للمستقبل، فسبق الفقهاء الزمان والمكان بالافتراضات الفقهية لما لم يحصل في زمانهم دون تضييع للمنهجية يفضي إلى الفوضى والعبث بالكليات.

وكان في صياغة علم التصوف العملي وتأسيس قواعده وأصوله وتفرع مدارسه وتنوعها اعتناءً بالركن الثالث من أركان الدين وهو الإحسان، مما أسس للفرد سبيل التزكية التي هي أساس الفلاح {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}<sup>1</sup>، وانتظم للأمة مسلك الرشاد الذي يعصم الآخذين به من نوازل الأهواء وتلاعب الأنفس.

ولكون العصمة منتفية عن تطبيق هذا المنهج بحكم الطبيعة البشرية وضعف النفوس فقد تكفل أئمة كل فن من هذه الفنون بوضع الضوابط التي تكفل حال الأخذ بها عدم الانحراف عن المقصود وأوجدوا مسالك الاحتساب في ذلك.

ولهذا فإن تَكَرَّرَ ظهور النماذج المخالفة لهذا المسلك المتكامل في تاريخ الأمة فلا يكرّ على القاعدة المقررة بل يؤكد صحتها؛ ولا يحصل الارتباك والتضييق والتضييع إلا بقدر التخلف عن المنهج.

---

<sup>1</sup> . سورة الشمس: 9-10.

## النموذج المعرفي

نشأ عن هذه المنهجية نموذج معرفي متجدد لهذه الأمة استطاعت به معرفة الغايات العظمى من العبادة والعمارة والتزكية، واستوعبت به الأمم وحضاراتها وأسست نهضة عظمى احتكم الحسي منها إلى المعنوي فازداد ازدهاراً وتقدمًا في انسجام باهر مع القيم والأخلاق والحفاظ على آدمية الإنسان وقيامه بحق الأمانة وتحقيق الخلافة عن الله في الأرض، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} <sup>2</sup>.

وقد قام هذا النموذج المعرفي على أسس عديدة من أهمها:

- مصادر المعرفة: الوحي والحس والعقل
- ترتيب العلوم
- منظومة القيم
- النظرة إلى الكون.

لكن تأخر أهل السنة عن تجديد هذا النموذج وتفعيله في القرون الأخيرة لأسباب عديدة، ليس هذا محل بسطها، أدى إلى تخلف الأمة عن مهمتها، فنشأت نماذج معرفية أخرى أخذت بزمام توجيه الأمم، بنيت عليها حضارة أرضية المقاصد منقطعة عن شرف الوحي، مما أنتج انحرافاً في مسار التقدم حصر مفهومه على الحسيات، فنشأ عالم لديه مكنة في التعامل مع الأسباب وقدرة على تفعيل القوانين

<sup>2</sup>. البقرة: 30.

الكونية المحسوسة من فيزياء وأحياء وكيمياء، فحدثت قفزة في الصناعة الدقيقة والثقيلة والتواصل والاتصال مع تضييع للقيم والمقاصد، فصار الإنسان المستخلف هو آلة الخراب التي تدمر الأرض وتسرف في إهدار خيراتها وتحتكم إلى قانون حق القوة بدلاً من قوة الحق، وذلك كله بسبب الانقطاع عن وحي السماء.

### محاولات التجديد واللحوق بركب التقدم

نشأ عن تخلف الأمة عن مسيرة العالم تحولها إلى أمة مستهلكة فكرياً وتجربة فتراجعت عن مشاركة العالم فضلاً عن قيادته. وانتهضت محاولات للخروج من هذا المأزق. منها توجه البعض نحو الانسلاخ عن هويته متوهماً أنه بذلك يخطو نحو العالم المتقدم.

ومنها إرادة أناس أسلمة النموذج المعرفي الحداثي مع فقد بوصلة النموذج المعرفي المسلم، فنشأ عن ذلك نموذجاً مشوهاً يشبه حال الغراب الذي أراد محاكاة القطا في مشيته.

ومنها طلب أناس اقتفاء مسلك من سلف من الأمة ولكن تصورهم لمسلكهم غاب عنه فهم أسس منهجهم، فقفزوا إلى النصوص متسوّرين الاستنباط عن غير دراية لقواعده ولا أهلية لتناوله مع ضعف إدراك طبيعة النموذجين المعرفيين المسلم والحداثي، فأصبح تسلل طغيان النموذج الحداثي إلى أنماط التفكير والحياة مؤثراً في فهم منهج السلف فخرج بذلك نموذج آخر للتشويه.

ودخلت هذه المحاولات الثلاث مع الواقع معتزًا عقيمًا، وسلكت في خلافاتها  
مسلكًا أثيمًا فتحولت هذه المحاولات لتجاوز الواقع إلى المزيد من الوقوع فيه، والله  
المستعان.

## ملاحح من أئر الخروآ على منهآ أهل السنة الأصيل على الواقع

لخروج من اننسب إلى السنة عن المنهج الأصيل أئر مخرب لواقع الأمة بشقيها "أمة الإآابة وأمة الدعوة" ومن أبرز ملامحه ما يلي:

### أولاً: المحدودية والتضييق

أدى الانحراف العقدي عن نهآ أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريديفة نحو التجسيم والقول بالآهة إلى بناء عقلية ضيقة بنت معتقدها في الخالق سبحانه على نسبة الحد إليه، تعالى عن ذلك، فكيف يمكنها النظر إلى الكون المخلوق بنظرة تتسم بالآتساع والآستيعاب؟!

ولهذا صعب عليها آستيعاب ما توصل إليه العلم التجريبي من آكتشافات مذهلة للكون خارج الكوكب الذي نعيش عليه، فنشأت فتاوى إنكار دوران الأرض حول الشمس والقول باستحالة الوصول إلى القمر، آستناداً إلى فهم لنصوص معصومة لم يقم على أسس الآستنباط المعتمدة.

وكانت مثل هذه الكارثة داعية إلى آستحضار وقوف الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى ضد التطور العلمي التجريبي.

بل لقد كرّ مسلك التجسيم والتشبيه والقول بالآهة على نظرة أصحابه لسنن الله تعالى في آختصاص أنبيائه وأوليائه فنشأ توهم الشرك حتى علّق آحدهم على قول



الإمام البوصيري: "ومن علومك علم اللوح والقلم"، فقال "فماذا بقي لله؟" وذلك لكون معتقده في علم الله بني على اعتقاد الحدّ.

بل وصل الأمر ببعضهم إلى نسبة ما يعد نقيصة إلى الباري سبحانه دون أن يقصد ذلك لما غلب عليه من فقد أدوات التعامل مع النصوص فأثبت بعضهم "النسيان" لله، تعالى سبحانه عن ذلك علوًا كبيرًا، مستندًا إلى قوله تعالى: {الْيَوْمَ نُنَسِّئُكُمْ} <sup>3</sup>، غافلاً عن قواعد اللغة من بلاغة وبيان بل عن قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} <sup>4</sup>.

كما نشأ عن الخروج عن أصول الفقه وقواعده تسوّر الاستنباط وتوهم الترجيح، فنشأ جيل يتوهم الصواب في فهمه للنص أو فهم أشياخه مما جعله يُنزل هذا الفهم منزلة النص. وغاب عنهم تمييز قطعي الدلالة عن ظني الدلالة، وغاب عنهم قبول تعدد الاجتهادات، فصار الحق عندهم محدودًا بما فهموه هم من النص.

ونشأ عن هذه المحدودية الضيقة عجزٌ عن استيعاب المدارس العلمية لأهل السنّة فضلاً عن غيرهم من المسلمين، فكيف يمكن لهذا الفهم أن يستوعب ما يجري في العالم السريع التتابع في متغيراته وأحداثه!؟

## ثانياً: الصدام والكراهية:

وترتب أيضاً على الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة تفشي البغضاء والكراهية التي سماها النبي ﷺ الحالقة إذ قال: "وإياكم والبغضة فهي الحالقة، لا أقول لكم

<sup>3</sup>. الجاثية: 34.

<sup>4</sup>. مريم: 64.

تخلق الشعر، ولكن تخلق الدين"<sup>5</sup>. والخروج الذي أفضى إلى الكراهية هنا يبرز من نواحي عديدة ومنها:

### توصيف الاختلاف:

نتج عن الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة في توصيف الاختلاف جعل مسائل من الحلال والحرام ضمن مسائل الاعتقاد، والحكم على المخالف بالشرك أو الابتداع العقدي، فصار الحديث عن التوسل والتبرك بقبور الصالحين، على سبيل المثال، في سياق العقيدة، وهذا مخالف لما عليه أهل السنة الذين تناولوا التوسل في سياق الحلال والحرام.

فترتب على ذلك رمي أهل القبلة بالشرك و"القبورية" فاستباحة الدماء المعصومة، ودارت حروب وخربت ديار وترى جيل على الكراهية والبغضاء والتطاول على كبار أئمة أهل السنة.

وإنّ من مسائل ذلك الخلط بين القطعي والاجتهادي:

### ● النظرة إلى الاختلاف الفقهي

درج السلف الصالح ومن سار على أثرهم على احترام تعدد الاجتهادات الفقهية وإقرار صوابها اقتداءً بالنبي ﷺ الذي أقر الصحابة على فهمين مختلفين لأمره حين قال: "لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة"<sup>6</sup>، دون ترجيح منه لأحدهما على

<sup>5</sup>. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (1/100).

<sup>6</sup>. أخرجه البخاري ومسلم.

الآخر، بل لقد أسس ﷺ ثقافة التنوع في النصّ المعصوم، ويينّ لسيدنا عمر رضي الله عنه أن القرآن نزل على سبعة أحرف في قوله ﷺ: "إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه"<sup>7</sup>؛ وما كان هذا عبثاً بل حكمة من لدن حكيم خبير.

وظهر هذا في جواب الإمام مالك لأبي جعفر المنصور حينما أراد حمل الناس على الموطأ: "إنّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرّقوا في البلدان"<sup>8</sup>.

وعندما صنف إسحاق الأنباري المتوفى سنة 252هـ "كتاب الاختلاف" قال له الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، سمه "كتاب السعة"<sup>9</sup>.

لذلك قال العلماء: اتفاق الأئمة حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة<sup>10</sup>.

إلا أنّ ثقافة حمل الناس على رأي واحد في المسائل الاجتهادية بدعوى الرجوع إلى الدليل، والخلط بين الدليل والاستدلال، تسبب في الصراع والصدام بل والقتال والتدمير والتفجير، وكم تطاول هؤلاء القوم على أئمة الأمة وعلمائها بدعوى الأخذ بالدليل، وإلى الله المشتكى.

## ● توضيح مفهوم أهل السنة

من ملامح الصدام ونشر البغضاء عند من خرج عن المنهج الأصيل لأهل السنة حصرهم أهل السنة في من قال بقولهم، وإخراج السواد الأعظم من أهل السنة،

<sup>7</sup>. رواد البخاري (2287) ومسلم (818).

<sup>8</sup>. ورد في "كشف المغطى في فضل الموطأ" للإمام ابن عساكر، ص. 6؛ و"تذكرة الحفاظ" للإمام الذهبي، 1/195.

<sup>9</sup>. ورد في ترجمة إسحاق بن مخلد الأنباري في كتاب "طبقات الحنابلة".

<sup>10</sup>. ذكره ابن قدامة في مقدمة كتابه المغني.

حتى شاع بين العامة بأنّ الاشاعرة والماتريدية والصوفية ليسوا من أهل السنة، فأُخرج بذلك السواد الأعظم من العلماء بل من المسلمين عن دائرة أهل السنة وشاع بسبب الجهل هذا المفهوم مقترناً بالتبديع والتشريك والاتهام بفساد العقيدة والتهجم والصدام. وأسست لذلك الطرح مدارس وجامعات ومؤسسات دعوية وإعلامية ورصدت أموال لهذه الفتنة!

وظهر من شُذاذ الأحداث من يتهم الحافظ ابن حجر والإمام النووي وأمثالهما بفساد الاعتقاد ويخرجهم عن أهل السنة، بل ويرمون الكبار من أمثال حجة الإسلام أبي حامد الغزالي بالشرك والزندقة؛ ومن عجبٍ أن تُجاز هذه التطاولات ضمن أطروحات دراسات عليا في جامعات إسلامية!

### ● الفتنة الطائفية

حذر النبي ﷺ من تكفير أهل القبلة فقال: "أئِما رجلٍ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"<sup>11</sup>، وقال: "ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله"<sup>12</sup>، وقال: "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته"<sup>13</sup>.

وقد أدى الخروج عن منهج أهل السنة والجماعة من عدم تكفير أهل القبلة بغير مستند قاطع إلى الوقوع في شرك الفتنة الطائفية.

<sup>11</sup>. حديث متفق عليه.

<sup>12</sup>. رواه الشيخان، وأحمد، والطبراني.

<sup>13</sup>. صحيح البخاري، كتاب الصلاة.

فقد درج أهل السنة على استيعاب الطوائف الأخرى من الشيعة والإباضية والظاهرية مع تقرير الخلاف العقدي وتحرير الأدلة والحجج في الرد على مخالفتهم في إطار الطرح العلمي البعيد عن التكفير وإهدار الدماء؛ وعاشت هذه الطوائف في كنف أهل السنة والجماعة قرونًا عديدة كان الغالب عليها الاستيعاب وحسن التعايش، وكانت هناك استثناءات من الاحتراب الداخلي جملها من صنيع الساسة الذين وظّفوا هذا الاختلاف في سياق الصراع على السلطة.

وهو عين ما يجري اليوم في واقع الأمة، فقد مرت قرون على السنة والشيعة في العراق وهم في تعايش وحسن جوار حتى جاء الاحتلال إلى العراق ففجر الفتنة الطائفية وسفكت الدماء وما تزال تُسفك.

وسبقها اتخاذ بعض الدول من شعار مذهب أهل البيت ذريعة للتعدي على جيرانها، كما اتخذ البعض الآخر نصره السنة والذب عن الصحابة ذريعة للتعبيّة ضد الأولى. والذي عليه جمهور أهل السنة هو عدم تكفير الشيعة إلا من صرح منهم بقذف أم المؤمنين الصديقة رضي الله عنها أو صرح بالقول بنقص القرآن وغالب الشيعة لا يقول بذلك.

### ● النظرة إلى أمة الدعوة من غير المسلمين

إن الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة أدى إلى انحراف النظرة إلى الكافر من النظرة القائمة على الرحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} <sup>14</sup>، ومحبة هدايته

<sup>14</sup>. الأنبياء: 107.

وإرادة إنقاذه بدعوته إلى الحق بالإقناع والتأليف وحسن المعاملة إلى القتل والمصادمة والتنفير.

واستعان هؤلاء في خروجهم باستدلالات باطلة بنصوص معصومة لم يفرقوا فيها بين الكافر الحربي والذمي والمعاهد، وذلك بتسورهم الاستنباط عن غير أهلية ولا التزام بالقواعد المقررة في أصول الفقه.

فنتج عن ذلك استدراج الأمة إلى مواجهات غير محسوبة استفاد منها الأعداء في بسط نفوذهم على الأمة والنيل من الأرض والعرض.

### ● تشويه الجهاد

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام وهو شامل لجهاد النفس وجهاد عمارة الأرض وجهاد العلم والتعليم والجهاد بالقرآن وجهاد المعتدين بالقتال.

والجهاد بالقتال له ضوابطه وأحكامه وآدابه، وهي مقررة عند فقهاء الأمة الذين استنبطوها من الوحيين.

وقد أدى الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة إلى الانحراف عن الهدى النبوي فأزهقت الأرواح المعصومة وخربت البلاد وصال أعداء الأمة عليها فجاء هذا الخروج بصد مقاصد الجهاد؛ بل صار الاحتراب الداخلي الذي كان السلف ينعتونه بالفتنة يصبغ بصبغة الجهاد فيقتل الابن أباه ويقتل الأخ أخاه ويُقتل المصلون في المساجد بدعوى الجهاد في سبيل الله!

وهكذا تشوّه في أذهان كثير من الناس دين الرحمة والجمال والحكمة بسبب فهمه فهماً سقيماً غير معتبر تجلّى في ممارسات خاطئة لتطبيق المبادئ والمفاهيم والأحكام الشرعية كإقامة الحدود والقصاص والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

### ثالثاً: الفوضى والعبثية:

نتج عن تضييع الالتزام بالمنهج الأصيل لأهل السنة في استنباط الأحكام الشرعية فوضى متشعبة وعبث بالأحكام الشرعية فتسور الفتوى من ليس أهلاً لها ووقعت الفتن التي من أعظمها إضفاء وصف تطبيق الشريعة والحكم بما أنزل الله على هذا العبث في صور متعددة منها:

### شعبوية الفتوى

نشأ عن عدم الالتزام بالقواعد الأصولية للاستنباط ما سمي بشعبوية الفتوى وهي على نوعين:

1. إطلاق العنان لعموم الناس في استنباط الأحكام بدعوى الخروج من تسلط رجال الدين وتحريفاً لدلالة حديث "استفتِ قلبك..."<sup>15</sup>.

وهو جزء من منظومة علمنة الحياة بحيث يصبح التدين شأنًا شخصيًا لا يتدخل في الحياة العامة.

---

<sup>15</sup>. أخرجه أحمد والدارمي وأبو نعيم.

2. تسوّز الكثير من المنتسبين إلى العلم وطلابه للاستنباط بمباشرة الاستشهاد بنصوص الكتاب والسنة بغير القواعد المقررة لدى المذاهب المعتمدة، فنشأ عن ذلك سيل من الفتاوى المتضاربة والمتناقضة والشاذة، وهي مع ذلك موسومة بدعوى تفرد كل منها بالحق والصواب لاستنادها كما يتوهم أصحابها إلى الدليل.

بل أصبح من بين الشباب من يتداول النصوص المعصومة مستنبطين منها الأحكام بغير رجوع إلى الشيوخ الراسخين في العلم، فيصدر عنهم من الفتاوى العبثية ما يذكرنا بموقف الإمام الأعظم أبي حنيفة حين قيل له: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: لهم رأس؟ قالوا: لا، قال: لا يفقه هؤلاء أبدًا<sup>16</sup>.

ووقع في ذلك أناس لهم اشتغال بفنون من العلم الشريف غير أن تخصصهم لا يخولهم للفتوى، فصدرت فتوى من أحد مشاهير المشتغلين بالحديث بوجوب خروج الفلسطينيين من الضفة الغربية بدعوى أنها أصبحت دار كفر وهو ما طار به العدو المحتل فرحًا وأخذ ينشره في وسائل إعلامه!

ولهذا فرّق العلماء بين المحدث والفقهاء، فليس من حقّ المحدث أن يفتي ما لم يشتغل بالفقه.

<sup>16</sup> الخطيب البغدادي، نصيحة أهل الحديث.



"جاء رجل إلى الأعمش فسأله عن مسألة وأبو حنيفة جالس، فقال الأعمش: يا نعمان قل فيها، فأجابه، فقال الأعمش: من أين قلت هذا؟ فقال: من حديثك الذي حدثناه، قال: نعم، نحن صيادلة وأنتم أطباء"<sup>17</sup>.

ومهما كان حفظ المحدث للأحاديث ومهما كانت معرفته بطرقها وأسانيدها فلا يحق له الفتوى بموجبها ما لم يشتغل بالفقه أصولاً وفروعاً.

وروي أنه "جاء رجل وافر اللحية إلى الأعمش، فسأله عن مسألة من مسائل الصبيان، يحفظها الصبيان، فالتفت إلينا الأعمش، فقال: "انظروا إلى لحيته تحتمل أربعة آلاف حديث ومسألته مسألة الصبيان، وليعلم أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير بها الرجل فقيهاً، إنما يتفقه باستنباط معانيه وإنعام التفكير فيه"<sup>18</sup>.

وروى الحافظ أبو نعيم قال: "كنت أمر على زفر وهو محتب بثوب، فيقول "يا أحول تعال حتى أغربل لك أحاديثك، فأريه ما قد سمعت، فيقول: هذا يؤخذ به، وهذا لا يؤخذ به، وهذا هاهنا ناسخ وهذا منسوخ"<sup>19</sup>.

وروى الخطّابي أنّ بعض مشايخه كان يروي حديث النبي ﷺ أنه نهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة (بإسكان اللام)، قال: وأخبرني: أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة، قال: فقلت له: إنّما هو الحلق جمع حلقة، وإنّما كره الاجتماع

<sup>17</sup>. المرجع السابق.

<sup>18</sup>. المرجع السابق.

<sup>19</sup>. المرجع السابق.

قبل الصلاة للعلم والمذاكرة، وأمر أن يشتغل بالصلاة وينصت للخطبة، قال: قد فَرَّجَت عَلَيَّ وكان من الصالحين<sup>20</sup>.

والقاسم المشترك بين الفريقين القائلين بشعبوية الفتوى هو المنطلق الثقافي لهما، إذ هو واحد من حيث لا يشعرون، فإنَّ هذه الرؤية هي نتاج لفلسفة ما بعد الحداثة الراضية لمفهوم المرجعية والنسق المنتظم الموروث.

ومن نتائج شعبية الفتوى بنوعيتها انتشار الفوضى في الفتوى ومن ثم في الواقع والافتئات على الجهات المخولة بتطبيق الشريعة قضاء وإنفاذاً.

#### رابعاً: تضييع المبادئ والقيم

تميزت الرسالة الخاتمة بمنظومة من القيم والمبادئ جاءت متممة لمكارم الأخلاق، قال النبي ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>21</sup>.

وهي ثوابت لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا تنسخ كما هو شأن الأحكام وهي مراتب تبدأ بالأسس التي لا يستغني عنها مؤمن ثم ترتقي في الكمالات بحسب تفاوت همم الناس في قابليتهم للالتزام وتشوفهم إلى الارتقاء والقرب من الملك العلام. وهذه المنظومة من المبادئ والقيم جاءت متسقة مع المعتقد والأحكام بحيث يكمل بعضها بعضاً ويؤثر فيه سلباً وإيجاباً، استقامة وانحرافاً.

<sup>20</sup>. الخطابي، معالم السنن.

<sup>21</sup>. أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم 237، وأحمد في المسند، والحاكم في المستدرک، والبيهقي.

وقد أفرد العلماء كتبًا ومصنفات لعلم الأخلاق وسبره وتقسيمه وجعلوا منها الأصول والفروع، ثم اعتنوا بتبيين سبيل التحقق بها والترقي في مراقبها ضمن علم التصوف العملي القائم على تزكية الأنفس.

ومن نتائج الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة رفض هذا العلم والتهجم عليه واعتباره خروجًا عن مسلك الرشاد ووسم علمائه بأنهم ليسوا من أهل السنة، بل وصل الأمر ببعضهم إلى التكفير واستحلال الدماء فחסرت الأمة بذلك صلتها بعلم التزكية المستنبط من الكتاب والسنة.

وتذرع الخارجون عن المنهج الأصيل لأهل السنة بانتساب بعض المبتدعة إلى التصوف وورود العبارات الموهمة في بعض كتب المتصوفة وارتكاب العامة للمخالفات الشرعية باسم التصوف. وهذا التذرع باطل من وجهين:

الأول: أنه ما من علمٍ إلا وانتسب إليه غير أهله ونسبوا الباطل إليه، فظهر في علوم الحديث الوضّاعون وظهر في الفقه الضالّون وظهر في العقيدة المشبهون والمعطلون، فهل تدم لذلك هذه العلوم الشريفة؟!!

الثاني: أنه كما ظهرت الحسبة في تلك العلوم فنشأ الجرح والتعديل في الحديث وظهر التنقيح والاستدراك في الفقه وظهر علم الكلام في الاعتقاد، كذلك ظهرت الحسبة في التصوف، فظهرت المصنفات وقامت الدعوات لتصحيح المسار.

أما شطب هذا العلم وتغييبه فهو كارثة كبرى ونازلة عظيمة نشأ عنها من البلاء ما الله به أعلم وعلى رفعه أقدر وأحكم. ومن ذلك:

### ● النكوص عن الفطرة

فطر الله العباد على استحسان الحسن واستقباح القبيح، فالصدق، مهما كان الالتزام به أو التفريط فيه، هو محمود عند الصادق والكاذب، وكلاهما لا يستسيغ وصفه بالكذب.

وكذلك الأمانة والوفاء والكرم والرحمة وغيرها من مكارم الأخلاق.

وفي ظل انتشار النسبية المطلقة والمفهوم المنحرف للحرية الشخصية ظهر طور جديد من فقد بوصلة القيم والأخلاق، وصرنا نسمع عن نسبية القيم، وصار الحديث عنها محتكمًا لتراتبية جديدة تقوم على الفردية وهدم الموروث من القيم والمبادئ والأخلاق. فبدأت في التردّي بتدرج ملحوظ طورًا بعد طور حتى كاد شرّ ذلك التردّي يعم الأجيال الشابة. ولم يجد هذا الداء الفتاك، في ظل تنحية علم التصوف وحاله ودوره، مقاومة في جسد الأمة.

### ● فقد التربية

كانت التربية تقوم على أساس من القيم والمبادئ، وكانت تتسلسل من جيل إلى آخر، وكان، إلى جانب دور الوالدين، للمسجد دوره وللشيوخ المرشدين المرابين دورهم، فبقي هذا النور ساريًا في القلوب وممتدًا في العقول.

فلما عودي علم التصوف فقد الناس منهجية التربية، ولم يبقَ منه إلا امتدادٌ لا يجد تغذية تعينه على الاستمرار، ونبذَ عن الأخلاق من هنا وهناك استنادًا، من المعادين للتصوّف، إلى نصوص معصومة دون خدمة لها تقوم على منهجية علمية كما هو الحال مع الأحكام الفقهية.

ولما هبت رياح التغيير السامة حاملة منظومات وافدة من القيم، فيها ما يستحسنه الشرع وسليم الطبع وفيها ما يستقبحاه، لم تجد أمامها المقاومة السديدة لا سيما أنّها مدعومة بجيش من وسائل الترويج تدريسيًا وإعلامًا وتواصلًا واتصالًا.

فحادت عن الجادة نظرةُ الأبناء إلى الآباء، وفقد الكثير منهم مفهوم البر والطاعة والصحبة بالمعروف، وحلَّ محلّها التمرد والعقوق والنظر بازدراء للموروث.

وفقد الكثير من الآباء الفهم السديد لمسؤوليتهم تجاه الأبناء فأصبحت سطحيةً ومقصورة على الإطعام والإيواء والتعليم النظامي والحماية من الأخطار الحسية.

ولم تعد لصلة الرحم ولا للإحسان إلى الجار صفة متصلة بالعبادة والتقرب إلى الله. وحل الجشع والأنانية والاستئثار محل القناعة والعطاء والإيثار.

وهكذا صار مسلك التربية وعمرًا صعبًا يشكو الآباء فيه من العجز عن مقاومة غزو المفاهيم المنحرفة ووسائلها في غياب منهجية تربوية قوامها المحبة والرحمة والذوق والمعاملة القلبية والسعة وحسن معالجة الأخطاء.

## ● أسلمة العبث بالقيم

طراً على الأمة طارئ خطير في ظل تغييب التزكية وعلم التصوف، وهو إعطاء المعاذير الملتبسة بالشرع للتفلُّت من القيم والمبادئ، وهذا من أخطر ما يهدد مستقبل إيمان الجيل.

وذلك أنّ بعض المشتغلين بالواقع السياسي، وهم يرون أنهم يخدمون الإسلام، قد وقعوا في معتركهم اليومي وصدامهم مع مخالفهم في العديد من المخالفات للقيم والمبادئ؛ وقد يُلتمس لهم العذر بمقتضى الضعف البشري في مواجهة الأحداث العظام، لكن الذي لا يقبل ولا يلتمس فيه العذر هو النكوص عن الاعتذار والتوبة والاستغفار إلى محاولة تبرير هذه الأخطاء والمخالفات بإصاقها بجناب الشرع المصون عن طريق الاستشهاد بنصوص معصومة أو قواعد معتبرة على غير سياقها، ومن أمثلة ذلك:

تبرير الكذب والاسترسال فيه واتهام الأبرياء وتشويه المخالفين بذريعة أن "الحرب خدعة"<sup>22</sup>.

تبرير خلف الوعد وارتكاب المعاصي المجمع عليها بذريعة أنّ "الضرورات تبيح المحظورات"<sup>23</sup>.

<sup>22</sup> حديث رواه البخاري (3030)، ومسلم (1740).

<sup>23</sup> من القواعد الشرعية، وهي تابعة لإحدى القواعد الفقهية الخمس الكبرى: "المشقة تجلب التيسير".

تبرير توريط الأتباع في الاقتتال بغير مسوغ شرعي وإهدار الدماء المعصومة بالتفجير والتفخيخ والعمليات الانتحارية بدعوى الجهاد والانغماس، وأنَّ الأبرياء يحشرون على نياتهم إلى الجنة.

تبرير فحش القول وقبيح المنطق ببعض النصوص القرآنية والاستثناءات في الأخبار المروية عن الصحابة وجعلها أصلاً في استباحة ما حرم الله من الشتيمة وبذاءة القول، حتى وصل بهم الأمر إلى نسبة السباب والبذاءة إلى الله تعالى، والعياذ بالله. وهكذا أصبح من يدعو إلى تحكيم الشرع وإقامة الخلافة في الأرض يهدم أساس القيم والمبادئ.

### خامساً: ابتداء منظومة منحرفة من الاعتقادات والأحكام

تميز المنهج الأصيل لأهل السنة بمنظومة سوية متكاملة متسقة من الاعتقاد والأحكام والمبادئ والنظرة إلى الكون وعمق الفهم لتزكية النفس وارتقاء الروح في معارجها ورفي الصلات بالبشر الموافق منهم والمخالف بل حتى حُسن العلاقة مع الكون حيواناً ونباتاً وجماداً.

ولكن الانحراف عن هذا المنهج قد جرف أصحابه إلى معايشة الواقع بزعم فقهه على نحو أوقعهم في برائته فالتهمتهم منظومة النموذج المعرفي الحدائثي.

فسمعنا من يعتبر الديمقراطية نوعاً من الشورى الشرعية وظهرت لنا نماذج من أسلمة الحدائث ألبست الإدارة والاقتصاد الرأسمالي المتوحش رداء الإسلام ودُرِّست

مبادئها بنفس منطلقاتها على أنها إسلامية بمجرد تطعيمها بآيات وأحاديث في بعض أبوابها.

كما ظهرت منظومة رد الفعل تجاه الواقع السياسي البائس للأمة داخليًا وخارجيًا سببت في مختلف أطوارها الدمار للدول الإسلامية.

ومن ذلك المنطلقات السبعة للفكر التكفيري إذ ارتبط كل منطلق بنحت مصطلح مستمد من نص شرعي يحمل دلالات مخالفة لمنهج أهل السنة وهي:

#### الأول: الحاكمية:

واستندت إلى قوله تعالى: {إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ} <sup>24</sup>، وقد استشهد بهذه الآية الكريمة نفر من الخوارج فهتفوا في وجه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قائلين: "لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ"، فقال لهم قولته الشهيرة: "كلمة حق أُريدَ بها باطل" <sup>25</sup>.

كما استندت الحاكمية في تكفير من لم يحكم الشريعة إلى تفسير الخوارج لقوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} <sup>26</sup> مخالفة لإجماع أهل السنة من السلف والخلف على أنه كفر دون كفر.

<sup>24</sup>. الأنعام: 57.

<sup>25</sup>. فيما روى مسلم (1066) من حديث عبيد الله بن أبي رافع.

<sup>26</sup>. المائدة: 44.



وقد نقل القرطبي والسمعاني أنّ هذا التفسير هو فارق بين أهل السنة والخوارج<sup>27</sup>. بل وصل بهم الأمر إلى الابتداع في العقيدة فنحتوا مصطلح توحيد الحاكمية وشرك الحاكمية.

### الثاني: الجاهلية:

واستندوا إلى قوله تعالى: {أَفْحُكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} <sup>28</sup> معممين وصف الجاهلية المخرج عن الإسلام على المسلمين، مخالفين بذلك صريح الكتاب والسنة اللذين بيّنّا أنّ أوجهها من موروث الجاهلية قد تطرأ على المسلمين تدخل في حكم المحرم شرعاً، ولا تمس الاعتقاد كقوله تعالى: {وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} <sup>29</sup>، وقوله ﷺ لرجل عيّر آخر بسواد لون أمه: "إنك امرؤ فيك جاهلية"<sup>30</sup>. ومن المعلوم أنّ كلاً من التبرج والنزعة العنصرية من المحرمات الشرعية وليس من مسائل الاعتقاد التي يكفر المرء بمجرد ارتكابها.

### الثالث: الولاية والبراء:

وهو مصطلح حادث نُحِتَ في العصور المتأخرة، ووردت كلماته في القرآن والسنة مثل آية البراءة وغيرها؛ غير أن المصطلح المنحوت أخذ المنحى المخالف لمنهج أهل

<sup>27</sup> قال الإمام القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (116/2): "يحتج بظاهر الآية من يكفر بالذنوب وهم الخوارج، ولا حجة لهم فيه لأن هذه الآيات نزلت في اليهود المحرّفين بكلام الله تعالى، كما جاء في هذا الحديث، وهم كفّار، فيشاركهم في حكمها من يشاركهم في سبب نزولها؛ وقال الإمام السمعي في تفسيره: "واعلم أنّ الخوارج يستدلّون بهذه الآية بأنّ من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، وأهل السنة قالوا لا يكفر بترك الحكم"، 42/2.

<sup>28</sup> المائدة: 50.

<sup>29</sup> الأحزاب: 33.

<sup>30</sup> رواد البخاري (30).

السنة والجماعة فاستُخدم في تبرير عقوق الوالدين وقطيعة الأرحام والاعتداء على المخالف من المسلمين.

كما عُمم في التعامل مع غير المسلمين على نحو مخالف لمقاصد الشريعة وأحكامها، وضرب بعض المروجين لهذا المصطلح بالخلاف المعتبر عرض الحائط، فجعلوا مجرد السلام على غير المسلم إخلالاً بالولاء والبراء يحكم على صاحبه بالردة، على الرغم من الخلاف المعتبر بين السلف في المسألة.

#### الرابع: الفرقة الناجية:

وهو مصطلح نُحِتَ من حديث افتراق الأمة الذي قال فيه النبي ﷺ: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار، قيل يا رسول الله من هم؟ قال الجماعة"<sup>31</sup>.

وعلى الرغم من اختلاف العلماء في شرح الحديث واختلافهم حول صحة آخره، فالمصطلح يُتناول على نحو مناقض لمقاصد الشرع وأحكامه، ابتداءً من مخالفة التناول لخيرية الأمة الثابتة في قوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }<sup>32</sup>،

<sup>31</sup>. رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه (واللفظ له) والحاكم وابن حبان وابن أبي عاصم وابن أبي الدنيا.

<sup>32</sup>. آل عمران: 110.

ومرورًا بدعوى التفرد بالنجاة ورمي المخالف في الفروع بالهلاك والتألي على الله تعالى بالحكم على المخالف أنه في النار.

#### الخامس: الاستعلاء:

وهو مصطلح نُحِتَ من قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} <sup>33</sup>، لكن جرى تحريف دلالته على نحو مخالف للشريعة المطهرة فجعل في سياق الاستعلاء بالإيمان! وهو لا يختلف في أصله عن نماذج الاستعلاء الأخرى لكون الاستعلاء وصفًا مذمومًا مغايرًا لمعنى الإعلاء، وقد وصف الله غرور فرعون في قوله: {وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى} <sup>34</sup>، فالاستعلاء وصف مذموم شرعًا مناقض لنيل سعادة الآخرة: {وَتِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا} <sup>35</sup>.

والاستعلاء هنا مرتبطٌ بالحاكمية المفضية إلى تكفير الحكومات والشعوب ووصمهم بالجاهلية والتعامل معهم من منطلق الولاء والبراء واعتبار الفرقة الناجية؛ ولا يمكن بحال أن يفهم من دلالة الآية التي استدعوها في تأصيله.

#### السادس: حتمية الصدام:

وهو مصطلح نُحِتَ على أساس الاستدلال بجمع من الآيات والأحاديث لإثبات ضرورة التصادم مع المخالف للوصول إلى نصره الحق، مما يهيب الأتباع للصدام

<sup>33</sup>. آل عمران: 139.

<sup>34</sup>. طه: 64.

<sup>35</sup>. القصص: 83.

والاحتراب الداخلي غير الضروري ولا المقبول، ويجعل سفك دمائهم ضرورة في هذا الصراع بدعوى أن هذا الدين إنما قام على الجماجم والأشلاء ويجعل سفكهم الدماء مبررًا.

### السابع: الخلافة والتمكين:

وذلك من قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }<sup>36</sup>.

فإلى جانب انحراف دلالة المصطلح عن دلالة الآية الكريمة بحصر مفهوم الاستخلاف والتمكين على الحكم أو تعليقه عليه، تحوّل الاستخلاف والتمكين من وعد لمن التزم بالتكليف الوارد في الآية، وهو الإيمان والعمل الصالح، إلى تكليف للسعي نحوه والاستهانة بإزهاق الأنفس في طريق تحقيقه.

فالإيمان والعمل الصالح تكليف، والاستخلاف والتمكين وعد، ولكنهم جعلوا الوعد تكليفًا سطوا به على التكليف الأصلي.

ولهذا سمعنا بعض كبار مراجع أصحاب هذا الفكر يتحدث عن الموت في سبيل الديمقراطية.

<sup>36</sup>. البور: 55.

إنَّ هذا المسار وأمثاله من مسارات الابتداع المذموم في الاعتقاد والأحكام كان أحد الأسباب في استدراج الأمة إلى الاحتراب الداخلي وتمكين أعدائها منها، وهو مسلك واضح الخروج عن المسلك الأصيل لأهل السنة والجماعة.

## خلاصة

إنَّ ما سبق بيانه ليس إلا نماذج لنتائج الخروج عن المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة، ولو أردنا البسط لخرجنا عن الغرض من البحث، ولكن خلاصة الأمر أنَّ المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة قام على أسس رصينة قادرة على استيعاب الزمان والمكان باستنباط شريعة المولى سبحانه من النصوص المعصومة وفق قواعد مؤسسة راسخة، وأنَّ الخروج عنها كان أحد الأسباب الأساسية لما تعانيه الأمة، بالإضافة إلى أنه تسبب في العجز عن مواجهة الأخطار المحدقة بها.

## خاتمة

إنَّ استعادة المنهج الأصيل لأهل السنة والجماعة تنظيراً وتعليماً وتفعيلاً صار ضرورة ملحة لتجاوز الأمة محنتها ولنهضتها نحو مهمتها وأداء دورها في العالم اليوم. ولتفعيل ذلك يُوصى بالآتي:

- إعادة النظر في التعليم الشرعي ومؤسسات تأهيل العلماء والدعاة وإحياء دور المدارس الأصيلة كالأزهر الشريف والقرويين والزيتونة وأربطة حضرموت ومحاضر شنقيط وزوايا الجزائر ومدارس الشام والعراق والهند والقوقاز والبلقان وغيرها.
- إعادة صياغة مناهج التربية الإسلامية وفق هذا المنهج الأصيل وتأهيل المدرسين لتعليمها تأهيلاً علمياً وسلوكياً، مع مراعاة حق الطوائف الأخرى في تعليم أبنائها.
- انتهاض الجامعات العلمية والمؤسسات البحثية لأداء دورها في خدمة الخطاب الشرعي وتجديده وفق المنهج الأصيل.
- تفعيل وسائل التعليم والتثقيف والإعلام التقليدي ووسائل التواصل الاجتماعي لأداء دورها في نشر المفاهيم الأصيلة وتصحيح المفاهيم الخارجة عنها.
- سن القوانين التي تكفل الانضباط في الفتوى وتصون الحرمات وتمنع بث الكراهية والبغضاء وتردع الفكر التكفيري المعتدي.

والله أسأل كمال التوفيق والنجح والعون والسداد وإلهام الرشيد والفرج عن الأمة إنه  
وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقيه إلى مولاه علي بن عبد الرحمن الجفري

الإثنين 19 ذو القعدة 1437، 2016/8/22